Dr Yousef Ghawanmeh
Department of Humanities
Yarmouk University
Irbid, Jordan

Yousef Ghawanmeh

The Effect of Plague and Drought on the Environment of the Southern Levant During the Late Mamluk Period

Numerous historical sources show that Palestine and Jordan thrived during the early Mamluk period. The flourishing civilization, numerous settlements, and active industries of that time declined from the late fourteenth to the early sixteenth century. This paper is an attempt to discover the causes of this decline. The historical sources indicate two possible causes.

Plagues in this region during the period in question recurred more regularly and continued over a far longer period than in Europe—occurring in Syria every two or three years for nearly 150 years. The most severe of these was of course the 'Great Plague', 'Black Death' or Bubonic plague during the late fourteenth century, but various other fevers also spread in epidemic proportions. These plagues caused a considerable decrease in population. Many cities and villages of the region were completely abandoned. The demographic effect continued for generations. Cattle as well as people died. Abu 'l-Mahāsin relates that factories and industries were shut down due to the deaths of their owners, while the high wages of labourers made it necessary for the government to order workers to resume their work in farms and factories.

Of course, the meagre supply of goods being produced under these circumstances led to a decline in trade. This in turn affected the resources and income of the state itself. Consequently the state had to borrow from the merchants who were engaged in trade with the Orient, particularly in order to rebuild the Mamluk army, most of whom had been killed by the plagues. With the extreme depopulation, the ruin of the economy, and the weakness of the army, many local governors were encouraged to lead rebellions, which were the main cause of the incapacity of the state to stand against the Ottoman armies in the sixteenth century.

Other contributing factors to the decline are mentioned in the sources. Numerous years of severe drought are recorded in the late fourteenth and early fifteenth century, as well as plagues of locusts. These disasters sometimes occurred during the very same years when the epidemics of disease struck. Their effect on agriculture, of course, contributed to the social and political consequences mentioned above.

Thus the decline of civilization in the Levant in the late Mamluk period may be attributed to a combination of intermittent, repeated natural disasters over a period of a century and a half.

Table

Years of recorded Epidemics	Years of Drought and Locusts
1347	
1362	1368 Drought and Locusts
1388	
1393	
1394	1394 Drought
1397	1397 Drought
1416	
1422	1425 Drought
1429	
1437	
1468	
1476	
1491	

الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي

بقلم
الدكتور يوسف درويش غوانمه
استاذ مشارك ورئيس قسم التاريخ
جامعة اليرموك ـــ اربد

الطاعون مرض وبائي معد ينتقل الى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان، ويصيب الغدد الليمفاوية، وخاصة غدد الفخذ وتحت الابط والأذن، فتتضخم وعنها تنتقل الميكروبات الى الدم، فيصاب المريض بألم شديد ويتقيأ دما لمدة ثلاثة ايام دون انقطاع. وفي العادة فان هذه الاورام التي تصيب الجسد يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس، فاذا تقيحت نجا المريض، وان بقيت صلبة فيعني هذا هلاك المصاب في اليوم الخامس من الاصابة. واحيانا يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء وتنتشر في اماكن متعددة منه. ونعت الطاعون في المصادر العربية «بالوباء» و «الفناء العظيم»، اما المصادر الاوروبية فنعته بالموت الاسود Black Death ويصف ابو المحاسن اعراضه فيقول: «كان يخرج خلف اذن الانسان بثرة فيخر صريعا، ثم صار يخرج للانسان كبة فيموت ايضا سريعا، ثم خرجت بالانسان خيارة فقتلت خلقا كثيرا، ثم صار الآدمي يبصق دما ويموت من وقته»(١) والطاعون سريع الانتشار شديد الفتك حتى بالحيوانات على اختلاف انواعها.(٢)

وذكرت المصادر ان بلاد الشام اصابها في سنة ١٨هـ (٦٣٩م) ما عرف «بطاعون عمواس»(٣)، وكان عاما ببلاد الشام والعراق ومات في البصرة بسببه عدد كبير من الناس.(٤) وصاحب طاعون عمواس قحط وجفاف، وأكثره كان ببلاد الحجاز(٥)، فأصابت الناس مجاعة شديدة ولزمة وجدوب وقحوط أدى الى فناء العديدين وهو ما سمي (بعام الرمادة».(٦)

ثم اصاب فلسطين في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ـــ١٩٣هـ) طاعون وصف «بأنه طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخربت ارضهم وتعطلت(٧)»، فلم تجد الارض من يملكها او يستغلها، فتحولت ضياع كثيرة الى الدولة وأصبحت «ضياعا للخلافة»(٨)، فأوكل بها من يزرعها ويعتني بها.

أما أشد انواع الطاعون فتكا وأوسعه انتشارا ذاك الذي انتشر في العصر المملوكي، ووصفته المصادر العربية «بالفناء الكبير، او الطاعون الاعظم»،(٩) وشمل كل انحاء العالم. وكان ابتداؤه في حلب سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) ومنها انتشر الى جميع بلاد الشام، فأصاب الاردن وفلسطين، وعم كل مدينة وقرية. وعن طريق السفن التجارية انتقل الى بلاد الفرنج (اوروبا) فأصاب قبرص، والاندلس، وايطاليا وفرنسا والمانيا، والدول الاسكندنافية وروسيا، وبريطانيا(١٠).

واستمر الطاعون يفتك بمنطقة الأردن وفلسطين منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى اواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وكان اشده ذاك الذي ابتدأ سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م)، فأصاب اولا اواسط آسيا والصين ثم الهند، وانتقل غربا بواسطة المسافرين الى بلاد الاناضول والعراق. وفي مستهل جمادى الأولى ٧٤٨هـ (٩ آب (أغسطس) ١٣٤٧م) ظهر بحلب(١١) فعم جميع بلاد الشام، ثم انتقل الى مصر، ومنها الى اوروبا نقله التجار الجنويون الى ايطاليا(١٢). ويصف ابو المحاسن هذا الطاعون فيقول: «أفنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي، حتى انه لم يبق

(١) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٩.
(٢) ابو المحاسن، نفس المصدر، ص١٩٨.
Nohl, The Black Death, London, 1924, p. 18.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ج٤، ص٦٣.
عمواس: بلدة في فلسطين قرب القدس وعلى بعد ستة اميال من الرملة، بدأ طاعون عمواس منها زمن الخليفة عمر بن الخطاب. (لي سترانج، ص٤٢٦). وقد دمرتها اسرائيل حاليا وأجلت سكانها عنها وجعلت منها منتزها عاما. (الباحث).
(٤) الطبري، المصدر السابق، ج٤، ص٦٣.
(٥) الطبري، المصدر نفسه، ص٩٦.
(٦) يقول الطبري: «اصابت الناس سنة بالمدينة وما حولها، فكانت تسفي اذا ريحت ترابا كالرماد فسمي ذلك العام عام الرمادة». (ج٤، ص٩٨).

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٦٣
(٨) البلاذري، المصدر السابق، ص١٦٣.
(٩) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩، ج١، ص١١٤.
(١٠) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٧٧،
Nohl, op. cit. p. 18
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٨
(١١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٧٥،
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٧.
(١٢) Nohl, op. cit. p. 18

بـبلد جنين غير عجوز واحدة خرجت منها فارة، وكذلك وقع بالرملة وغيرها وصارت الخانات ملانة بجيف الموتى».(١٣) اما ابن بطوطة فذكر ان الطاعون اصاب عجلون و بيت المقدس(١٤). وان غزة فنيت بسببه، وأكد ذلك كل من المقريزي وابي المحاسن، فذكرا ان غزة فقدت اثنين وعشرين ألفا من سكانها.(١٥)

وعقب الطاعون اصيبت بلاد الشام سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) «بوباء ومرض كثير»، فأصاب غزة والقدس ودمشق، وأدى الى هلاك خمسة آلاف شخص في شهر واحد في مدينة دمشق لوحدها(١٦). ثم عاد الطاعون للمنطقة في السنوات ٧٦٤هـ (١٣٦٢م)، ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)، ٧٩٥هـ (١٣٩٢م)، فأصاب شمال الأردن والأغوار وغزة وأدى الى هلاك اعداد كبيرة من سكانها(١٧). ولكن سرعان ما عاد الطاعون والوباء والحميات الى البلاد في السنوات ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)، ٧٩٧هـ (١٣٩٤م)، ٨٠٠هـ (١٣٩٧م)، ٨١٩هـ (١٤١٦م)، ٨٢٦هـ (١٤٢٣م)، فأهلك العديد من سكان الاردن وفلسطين(١٨) وقدر ابن الصيرفي عدد من مات في بلاد الشام في سنة ٨١٩هـ (١٤١٦م) بستة وثلاثين الفا(١٩).

وفي سنة ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) تفشى الوباء في الأردن وفلسطين، واشتد تأثيره في غزة والرملة والقدس وصفد، فمات بسببه خلائق لا يحصى عددهم.(٢٠) ووصف المقريزي هذا الوباء بأنه يشبه النزلات، اذ كان ينحدر من الدماغ الى الصدر، فيموت الانسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرض، وكان أكثره في الاطفال والشباب(٢١). ثم عاد الوباء للأردن وفلسطين في سنة ٨٤١هـ (١٤٣٧م) فمات الكثيرون، وكان اشده في غزة والرملة ومنطقة الأغوار.(٢٢) و باعتقادي ان هذا الوباء الذي تقدم وصفه، هو نوع من انواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذه السرعة وبهذا الشكل الخطير. واستمر الطاعون يفتك بالأردن وفلسطين في السنوات ٨٧٣هـ (١٤٦٨م)، ٨٩٧هـ (١٤٩١)، وأفنى العديد من السكان(٢٣).

أما الجفاف الذي اصاب الاردن وفلسطين في العصر المملوكي فكان مزامنا في اكثر الاحيان لوباء الطاعون، ففي سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤م) أصاب البلاد جفاف فانحبست الامطار، وجفت الآبار وانعدمت الزراعة، وهلكت المواشي، فنزح الناس عن بلادهم، وتعطلت حركة التجارة الداخلية في المدن وتسبب ذلك في كساد اقتصادي كبير، والى موت العديدين جوعا.(٢٤)

ثم ان بلاد الشام عامة اصيبت في سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) «بالقحط العظيم»، فجفت الآبار وانخفض منسوب مياه الانهار حتى انها لم تكن قادرة على ادارة الارحية المعدة لطحن الحبوب، فأغلقت لذلك ارحية عديدة.(٢٥) وجفت الينابيع في انحاء متفرقة من البلاد، وأدى الجفاف الى هلاك الناس وانعدام الزراعة واتلاف المحاصيل الزراعية وقلة مياه الشرب.(٢٦) فارتفعت الاسعار واضطر الناس لأكل الشعير لعدم وجود القمح. و باع الناس أغلى ما لديهم بأبخس الاسعار لشراء الطعام، وفي هذا القحط قال الشاعر:

سنين القحط قد دارت علينا
وعمت للكبير مع الصغير
و بعنا الفرش والبسط الغوالي
ونمنا بالثياب على الحصير
لقينا من اذاها ما لقينا
وزاحمنا الحمير على الشعير(٢٧)

ونتيجة لهذا القحط قل الخبز في الاسواق، وصار الناس يتزاحمون على الأفران صفوفا خلف بعضهم من المطلع الى المغيب، وهو عجين أسود «وكثير من الناس ما يحصل له خبز، و بقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل له خبز»(٢٨). وقد ارتفعت اسعار اللحوم وانعدمت الفواكه والخضروات من قلة الماء، وكان الناس في شدة عظيمة(٢٩).

(١٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٧.
(١٤) ابن بطوطه، الرحلة، ج٢، ص٤٧٩.
(١٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٧٥.
ابو المحاسن، المصدر نفسه، ج١٠، ص١٩٨.
(١٦) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م، ج٣، ص ٢٤٤.
(١٧) ابن قاضي شهبة، نفس المصدر، ج٣، ص٨١، ٨٢، ١٢٥، ٤٦٧، ٤٦٨.
(١٨) ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، ص٥١٣، ٥٧٨، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٢.
المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٣٩.
(١٩) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، ج٢، ص٣٦٩.
(٢٠) المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٣٦.
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٣٨، ٣٤٨.
(٢١) المقريزي، السلوك ج٤، ق٢، ص٨٢٤.
يوسف غوانمه، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص١١٨.
(٢٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص١٠٢٩، ١٠٣١، ١٠٣٤.
(٢٣) الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص٢٨٦، ٣١٨، ٣٦١.
يوسف غوانمه، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١١٩.
(٢٤) ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بريز، كاليفورنيا، ص١٦٤.
(٢٥) ابن صصرى، المصدر نفسه، ص٢٠٠، ٢٠١.
ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج٣، ص٦٤٨.
(٢٦) ابن صصرى، المصدر نفسه، ص٢٢٤.
(٢٧) ابن صصرى، المصدر نفسه، ص٢٠٢.
(٢٨) ابن صصرى، المصدر نفسه، ص٢٢٦.
(٢٩) ابن صصرى، المصدر نفسه، ص٢٢٧.

ثم ان القحط اصاب الاردن وفلسطين سنة ٨٢٥هـ (١٤٢٢م) «فأجدبت اراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر في اوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم وقلت المياه عندهم». (٣٠) وذكر المقريزي في سنة ٨٢٩هـ (١٤٢٥م) ان جنوب الشام أصيب بقحط وجفاف أدى الى ارتفاع الاسعار في بلاد غزة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماة (٣١).

ومن الملاحظ ان سنين القحط والجدب كانت متزامنة مع سني الطاعون والأوبئة فأثر ذلك في بيئة جنوب الشام فقلت المواد الغذائية واصيب الناس بالمجاعة والعطش والفناء الكبير. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعرضت البلاد في تلك السنوات العجاف لزحف الجراد القادم عبر الصحراء، فأثر في البيئة الزراعية والنباتية وزاد من عناء المواطنين وبؤسهم. ففي سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) ظهر بالشام جراد عظيم لم يسمع بمثله وامتد من مكة الى الشام، وكان اكثره بحوران ومنطقة الاردن حتى أكل الاشجار والأخشاب وأبواب الدور، «وكان من شأنه يعجلون انه امتلأت منه المدينة وغلقت الاسواق وطبقت ابواب الدكاكين والطاقات وسدت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع وتداعى على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة، وانتنت (المدينة) لكثرة ما قتل منه» (٣٢).

من خلال سردنا للاحداث السابقة نلاحظ ان منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) اصابها الفناء العظيم (الطاعون) ثم الوباء والقحط والجفاف عدة مرات منذ اوائل القرن الأول للهجرة (السابع الميلادي)، وحتى اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فما تأثير ذلك في البيئة الاردنية الفلسطينية؟؟

وصفت المصادر منطقة الاردن بالخصوبة والمناخ المنعش، فشمالها كان من أحسن المناطق الصحية في العالم (٣٣). وغطت غابات السرو والسنديان والبلوط معظم مرتفعات عجلون ومؤاب والشراه، وانتشرت الينابيع في الأودية العديدة شمالها وجنوبها. أما سهولها فاشتهرت بالخصوبة ووفرة الغلات في كل من عجلون والبلقاء والشوبك والكرك، (٣٤) وكثر القمح في عمان والسلط فوصفت «بمعدن الحبوب» اما غابات الزيتون فانتشرت في عجلون ومؤاب ووادي موسى والشراه، وكانت كروم العنب في كل مكان من الاردن. وذكرت المصادر ان جبال مؤاب اشتهرت

(٣٠) المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٠٩.
(٣١) المقريزي، المصدر نفسه، ص٧١١.
(٣٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٤٥٧.
(٣٣) Smith. The Historical Geography of The Holy Land, p 532.
(٣٤) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٨٦.
ابو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٢٨، ٢٤٥.

بأشجار اللوز والرمان والتين (٣٥)، وأودية الكرك والسلط وحسبان بفواكهها المفضلة من المشمش والرمان (٣٦) وأشجار الجوز، حتى ان سيلا اجتاح اودية الكرك سنة ٧٨٧هـ (١٣٨٥م) فأخذ في طريقه اثني عشر الف شجرة جوز. (٣٧) ووجد في الاغوار زراعة الأرز وقصب السكر والموز والنخيل، (٣٨) وانفردت مدينة بيسان بنبات السامان الذي يصنع منه الحصر السامانية. (٣٩) ووجد النخيل في أيلة (العقبة) ومدينة زغر في الغور الصافي جنوب البحر الميت. (٤٠) اما المراعي فقد انتشرت في الجبال والسهول والاغوار والبادية وكثرت فيها الأغنام والابقار والابل. (٤١)

اما منطقة فلسطين فقد وصفها الجغرافيون بالخصب ووفرة الانتاج، فاشتهرت المناطق الجبلية في الجليل ونابلس والقدس والخليل بالاشجار المختلفة كالسرو والسنديان والخروب والسماق، والزيتون والكرمة والتين والجميز، والتفاح والخوخ واللوز والجوز والرمان والمشمش. (٤٢) اما السهول الساحلية فاشتهرت بقصب السكر والبرتقال والسفرجل والحبوب كالقمح والشعير والسمسم والذرة والخضروات بأنواعها. (٤٣) وهكذا فاننا نرى ان منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) في العصر الاسلامي كانت من اخصب المناطق وأجملها، وافرة الغلات ذات مناخ منعش وطبيعة جميلة وكثافة سكانية عالية.

ولكن الطاعون والوباء ثم القحط والجفاف تركت آثارها بارزة في البيئة الاردنية الفلسطينية. فالطاعون اصاب البلاد منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ثم تتابع في فترات اخرى لاحقة. فالطاعون الذي اصاب البلاد في عهد الرشيد أثر على الديموغرافية في الاردن وفلسطين، وفنيت عائلات بأكملها، وتعطلت الزراعة وفلاحة الارض، مما

(٣٥) الادريسي، نزهة المشتاق، القسم الخاص ببلاد الشام، ص٥.
(٣٦) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٧٨، ١٧٩. ابو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٧، القرماني، اخبار الدول وآثار الأول، ص٢٥٩.
(٣٧) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، دمشق ١٩٧٧، ج٣، ص١٥٧.
(٣٨) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٩، المقدسي: احسن التقاسيم، ص١٩٢، الأدريسي، المصدر السابق، ص٣، ٤.
(٣٩) الادريسي، ص٤.
(٤٠) المقدسي، ص١٧٩.
Fulcher of Chartres, p. 146.
(٤١) ابن صصرى، المصدر السابق، ص١٥٧.
(٤٢) الادريسي، المصدر السابق، ص٩.
الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص٥٩.
(٤٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٣٥، الادريسي، نزهة المشتاق، ص١١، ابن بطوطة، ج١، ص٣٥.
يوسف غوانمه، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص٨٠. لي سترانج، ص٩٧ — ٩٩، ٢٥٧، ٢٨٦.
Benvenisti, The Crusades In The Holy Land, p. 217.

دعا الدولة الى تأجير هذه الاراضي لفلاحين جدد، بل ان قسما من هذه الاراضي اصبح ملكا للخليفة(٤٤).

اما الطاعون والوباء الذي اصاب البلاد في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فكان تأثيره كبيرا في ديموغرافيتها فمات العديدون من سكان الاردن وفلسطين، وفقدت البلاد ثلي سكانها(٤٥). فابن بطوطة ذكر ان عجلون والقدس وغزة كان معظمها خاليا من كثرة من مات فيها من الطاعون.(٤٦) اما جنين والرملة واللد والكرك والاغوار فبعضها فقد كل السكان، لذا تأثرت الزراعة ولم تجد الارض من يزرعها، فكانوا يجدون الفلاحين امواتا خلف محاريثهم، و بعضهم مات و بيده البذار.(٤٧) ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل اصاب الطاعون الطيور كالنعام والغربان والحيوانات كالابقار والابل والاغنام واهلك اعدادا كبيرة منها.(٤٨) وامتد الى الحيوانات البرية، فوجدت الاسود والحمر الوحشية والذئاب والخنازير والارانب مطعونة في منطقة الاغوار.(٤٩) فالطاعون والوباء (الحميات) اثر في ديموغرافية البلاد في العصر المملوكي واستمر وجوده في المنطقة منذ اواسط القرن الثامن الهجري(الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وأدى الى نقص كبير في عدد السكان. فتوقف النمو السكاني تماما، في فترة من الفترات، فالأطفال الذين يولدون كانوا يموتون بعد يوم او يومين(٥٠). وحدث مثل ذلك في اوروبا فقد توقفت الخصوبة والنمو الديموغرافي تماما بسبب طاعون القرن الرابع عشر الميلادي(٥١). وأفنى هذا الطاعون ثلث سكان اوروبا، ففقدت كل من جنوا وفينيسيا ستين الفا من سكانها(٥٢)، اما فلورنسا ولندن ففقدت كل مدينة منها مئة ألف نسمة، وفقدت بيزا سبعة اعشار سكانها. اما سكان قبرص فقد هلكوا جميعا، وفقدت المانيا مليونا وربعا من سكانها، وفرنسا ثلاثة ارباع سكانها وايطاليا نصف السكان(٥٣). وهذا النقص الهائل في عدد السكان كان تأثيره كبيرا في الثروة الزراعية والاقتصادية والحيوانية، فانخفضت بل قلت مواردها ومردودها على البلاد.

وقد تأثر نظام الملكية في الشام جميعها نتيجة للطاعون بسبب هلاك العديد من الملاكين والمزارعين، فانحلت الاقطاعات بموت اصحابها، وانتقلت ملكية الاراضي الى ملاكين جدد(٥٤). وظهرت طبقة جديدة من العامة كالخياطين والأساكفة ملكت الاقطاعات،(٥٥) ولم يسمح لها في السابق امتلاك مثل هذه الاملاك ــ لأن الاقطاعات المملوكية كانت في معظمها عسكرية من حق الامراء والاجناد فقط ــ بل ان بعضهم ملك البيوت والأموال لموت اصحابها ولعدم وجود من يرثها او يطالب فيها.(٥٦) ولقلة الفلاحين العاملين في الارض حدت الدولة من حرية الفلاحين ومنعت انتقالهم من ارض الى اخرى الا بعد مرور ثلاث سنوات، وان فعل وترك الارض اعيد اليها بالقوة(٥٧). ونرى ان الأمر حدث في نفس الوقت في انجلترا، فبعدما اصيبت البلاد بالطاعون قرر البرلمان بقانون العمال عودة الاقنان وعمال الحرف الى اجورهم القديمة وحرم عليهم الانتقال من جهة الى اخرى(٥٨).

وكان من نتيجة الطاعون كذلك ان تأثرت الثروة النباتية فلم تجد البساتين والكروم من يعتني بها لموت اصحابها ودوابهم، فخربت وجفت اشجارها، وأدى ذلك الى نقص في الثروة الشجرية والنباتية. ثم ان القحط والجفاف الذي واكب الطاعون والوباء في العصر المملوكي أثر على البيئة في الأردن وفلسطين، فهلكت الحيوانات وجفت الزروع والاشجار وخربت البلاد لجفاف المياه من الينابيع ونقص منسوبها في الانهار، اضف الى ذلك ما سببه الجراد الكثيف الذي دهم البلاد في تلك الفترة الحرجة من تاريخها وأدى ذلك الى غلاء في الأسعار فهجر السكان والفلاحون قراهم(٥٩). اذن حدث تغير في الكثافة السكانية في بلاد الشام، وهجرة داخلية، مما ادى الى تغييرات في التجمعات السكانية آنذاك. وهكذا فقد كان للعوامل الطبيعية السابقة من قحط وجفاف وأوبئة وطاعون وجراد آثار مباشرة في عدم النمو السكاني. فالنمو السكاني هو الأم للتقدم الزراعي الذي هو متطلب طبيعي للتقدم التجاري

(٤٤) البلاذري، المصدر السابق، ص١٦٣.

(٤٥) يوسف غوانمه، المرجع السابق، ص١١٩.

(٤٦) ابن بطوطة، ج٢، ص٧٥٠.

(٤٧) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٨.

(٤٨) Nohl, op. cit. p. 18

(٤٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٨٤، ابو المحاسن، المصدر السابق، ص٢٠٩، وانظر ابن اياس، ط الشعب، ص١٦٤.

(٥٠) ابو المحاسن، المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(٥١) Nohl, op. cit, p. 40.
Lopez The Commercial Revolution In The Midle Ages, p. 29
Kedar, Merchants In Crisis, p. 165

(٥٢) Kedar, op. cit, p. 5, 19.

(٥٣) Nohl, op. cit. p. 18

(٥٤) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، ج٢، ص٣٣٠.

(٥٥) ابو المحاسن، المصدر نفسه، ج١٤، ص٣٣٩، ٣٤٠.

(٥٦) ابو المحاسن، نفس المصدر، ج١٠، ص٢٠٨.

(٥٧) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٣٤، فهو يقول: «وقد جرت العادة بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم و يعاد الى القرية قهرا و يلزم بشد الفلاحة».

(٥٨) محمد مصطفى زيادة، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي، بحث في التاريخ والآثار، القاهرة، ١٩٦٢ ، ص١٦١.

(٥٩) ابن صصرى، المصدر السابق، ص١٦٤، ٢٠٢.
المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٠٩، ٧١١.

والصناعي والنمو السكاني يحتاج الى البيئة النقية المناسبة، والى الا من والاستقرار الذي كان مفقودا في فترات لاحقة من العصر المملوكي الثاني. فغزوات التتار بقيادة تيمورلنك والتطاحن المملوكي على السلطة، وثورات النواب والمماليك، ثم حروب المماليك مع العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ثم الاجتياح العثماني للبلاد ومهاجمة العشير للمراكز الحضرية بعد ان انحل حبل الامن والاستقرار وضعف السلطة المركزية، لكل ما سبق خربت القرى وهجرها سكانها، فلم يأت القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي الا وعدد كبير من القرى خاليا من السكان، حتى ان السجلات العثمانية نعتت العديد منها ب (خراب وخالي)(٦٠).

وكان للطاعون والوباء والقحوط آثار سلبية في المجتمع الشامي بشكل عام، فانتشر الفساد والفسق والفجور، وتعاطى الناس الفواحش، فابن صصرى يقول في سنوات القحط العظيم الذي اصاب الشام: «وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات مالم نكن نراه، وسمعنا فيه ما لا سمعناه، وأبصرنا عجائب، وشاهدنا غرائب، فلهذا الحال قلت الارزاق، وكسدت بضائع الاسواق، وقل نزول الغيث، وتعطلت اسباب الناس، وقست قلوب الملوك، وتجبر الغني على الصعلوك، فهلكت الرعية وعظمت البلية»(٦١). وبسبب القحط والغلاء ظهرت طبقة طفيلية استغلت حاجة الناس، فاحتكرت الاصناف وتلاعبت في اقوات المواطنين، وفرضت الاسعار التي تريدها، مما دعا العامة الى الثورة على هؤلاء المحتكرين، فحطمت قصورهم، واستولت على اهراءاتهم وما بها من مغلات واطعمة(٦٢). وعلى نقيض ذلك حدث في فترة انتشار الطاعون والاوبئة والموت الكثير، فنجد ان الاسعار انحطت، وبيعت السلع بأبخس الاسعار لعدم وجود من يشتريها، وانحطت قيمة الذهب والفضة. ومن الآثار السلبية للطاعون على المجتمع الشامي بشكل عام (ومجتمع الاردن وفلسطين بشكل خاص) قلة الصناع والعمال، وارتفاع الاجور، مما اضطر الدولة استخدام القوة لمنع مثل ذلك وارغام العمال على القبول بأجور معقولة.(٦٣) وحدث نفس الشيء في الدول الاوروبية اثناء الطاعون الكبير، لكن دولها تغلبت على هذه المعضلة وما قد يترتب عليها من نتائج ثورية قد تؤدي الى تغييرات هامة في مجتمعاتها، فسنّوا القوانين التي حرمت على سائر عمال الحرف تقاضي الأجور الباهظة(٦٤).

(٦٠) Utteroth and Abdal Fatah, Historical Geography of Palestine, p. 26.

(٦١) ابن صصرى، المصدر السابق، ص١٦٤.

(٦٢) ابن صصرى، المصدر السابق، ص٢٠٨، ٢٠٩.

(٦٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢١٠.

(٦٤) محمد مصطفى زيادة، المرجع السابق، ص١٦١.

كما ان التجارة تأثرت لعدم وجود السلع ومن يحملها او ينقلها، وانعكس ذلك على البلاد، لا بل على الدولة عامة، فقلت مواردها المالية مما دفع السلطان للاستدانة من تجار الكارم لتجريد الحملات لمحاربة الثائرين على الدولة.(٦٥)

ومن النتائج ايضا ظهور حركات التمرد والعصيان بعد ان انحل حبل الأمن في الدولة المملوكية بشكل عام لموت اكثر جيشها في الطاعون والوباء، وخصوصا في دولة المماليك الثانية.(٦٦) ولقلة مواردها الاقتصادية والمالية لم تتمكن من شراء مماليك جدد تزود بهم قواتها العسكرية، مما دفع بعض الامراء الثورة على السلطة المركزية ومحاولة الاستقلال في نياباتهم وخصوصا في بلاد الشام(٦٧). ومما لا شك فيه ان ذلك كان سببا من اسباب ضعف الدولة المملوكية وعدم استطاعتها الصمود والوقوف امام العثمانيين في اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

ونتج عن ذلك ايضا تغييرات اجتماعية خطيرة، فظهرت طبقة جديدة امتلكت الاراضي والاموال وكانت في السابق محرومة من هذا الامتياز، فنرى اصحاب الحرف العامة يمتلكون الاقطاعات علما ان هذه الاقطاعات كانت حكرا على الامراء والاجناد مقابل تقديمهم خدمات عسكرية للدولة. وكان للكساد الاقتصادي والقحط والمجاعة والموت بأعداد كبيرة مردوده الاجتماعي، فأثر في السلوك والقيم والاخلاق العامة، وهجرت قرى عديدة واصبحت خربة خالية من السكان. وحدثت ردة لدى المواطنين في الشام، فأصابهم اليأس فعمدوا الى الفسق والفجور والملذات هروبا من واقعهم المرير ونهايتهم السريعة. بينما عمد آخرون للجوء الى الله بسبب الضائقة التي كانوا يعانون منها، فهرعوا الى المساجد ودور العبادة يطلبون الرحمة من الله، وحدث نفس الشيء في اوروبا. وقد شاهد ابن بطوطة لوحة معبرة عن التوبة والرجوع الى الخالق اثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) فقال ان الدمشقيين «باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح، وخرجوا جميعا على اقدامهم، وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة. وخرج جميع اهل البلد ذكورا واناثا، صغارا وكبارا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بأنجيلهم، ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وانبيائه،(٦٨) ان يزيل عنهم هذا الوباء ويحميهم منه، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس ونذروا النذور لهذه الغاية.(٦٩).

(٦٥) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٧١
الكارم والكارمية، هم التجار الذين كانوا يتاجرون بسلع الهند والصين ووجدوا في عدن ودمشق والقاهرة والاسكندرية.

(٦٦) ابو المحاسن، المصدر نفسه، ج١٤، ص٣٤٠.

(٦٧) Kedar, op. cit. p. 14.

(٦٨) ابن بطوطة، الرحلة، ١ ص١١٤.

(٦٩) المصدر نفسه، ص٧٥٠.

وتسبب الطاعون في موت اعداد كبيرة من علماء وفقهاء البلاد، فابن بطوطة مر بالقدس اثناء انتشار الطاعون في الاردن وفلسطين سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) فقال: «ووجدت من كنت اعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى، فلم يبق منهم الا القليل». (٧٠) وحدث مثل ذلك في غزة التي فقدت ثلاثة ارباع علمائها وفقهائها وشهودها العدول، (٧١) وانسحب ذلك على بقية البلاد الشامية والمصرية، ولا شك ان موت العديد من علماء وفقهاء البلاد كان له تأثيره على الحياة العلمية وتطورها.

خاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة نشير الى ما يلي:

١. اصيبت المنطقة بالطاعون منذ عام ٦٣٩م وهو ما عرف بطاعون عمواس وصاحبه جفاف وقحط ومجاعة. ثم طاعون القرن الثامن الميلادي في عهد هارون الرشيد ومن نتائجه انحلال الملكيات وعدم وجود من يمتلك الارض و يستغلها.

٢. ثم عاد الطاعون والوباء للمنطقة والذي سمي بالطاعون الاعظم أو الموت الاسود منذ سنة ١٣٤٧م وعم كل مدينة وقرية، وكان هذا عاما في العالم، ولكنه بقي في منطقتنا مدة اكبر اذ استمر من اواسط القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الخامس عشر أي (١٥٠سنة).

٣. صاحب الطاعون في مرات عديدة جفاف وقحط ومجاعات وفي احيان كثيرة انتشر الجراد الذي فتك بالثروة والغطاء النباتي في البلاد.

٤. لم تكن الدولة سلبية ازاء ذلك، فمنذ العصر الايوبي انتشرت البيمارستانات (المستشفيات) في جميع انحاء بلاد الشام وذكرت المصادر ان سبب ذلك هو الاوبئة التي فتكت بالناس، فوصل عدد المستشفيات الى (٣٠) مستشفى، معظمها كان يدرس الطب، لذا فقد كثر الاطباء ولدينا كتب تراجم لمئات منهم، بل وجد في معظم القلاع اطباء للمحافظة على سلامة الجنود والسكان المجاورين.

٥. اذا كان الطاعون الذي اصاب اوروبا ادى الى تغييرات اجتماعية كبيرة بل كان مقدمة للثورة الصناعية وانحلال نظام الاقطاع فما هي التغييرات التي اصابت المنطقة عامة وهل كانت بنفس الدرجة التي حدثت في اوروبا؟

٦. الانقلابات أو التغييرات التي حدثت في المجتمعات الاوروبية لم تكن مفاجئة بل انها ادت الى تغييرات اساسية بطيئة نستطيع ان ندرجها في مجملها في قائمة الانقلابات، فهل حدث ذلك في منطقتنا؟

٧. البحوث الاوروبية رتبت على طاعون القرن الرابع عشر، معظم الحركات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فهل نستطيع ان نرتب على الطاعون في بلادنا تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية؟

٨. المصادر التي لدينا تذكر ان قرى منطقة الكرك في نهاية الدولة المملوكية كانت ٤٠٠ قرية وفي منطقة البلقاء حول عمان ٣٠٠ قرية وفي شمال الاردن وحوران ١٢٠٠ قرية ما عدا منطقة الاغوار وان معظم المدن كانت عامرة مزدهرة بالسكان كالكرك والشوبك وعمان والعقبة وعجلون واربد وحبراص والسلط وغيرها.

٩. لديكم تساؤل كبير لماذا هذه الخرائب المنتشرة في جنوب البلاد وشمالها والتي تبلغ المئات ولماذا خربت واين سكانها؟ ثم لماذا اصبحت البتراء والشوبك وعمان ومأدبا وجرش وعجلون وحبراص و بيت راس وجدرا وفحل وقويلبه وام الجمال خرائب قليلة السكان، فعند وصول الرحالة الاوروبيين الى المنطقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكروا بل وصفوا قلة السكان في كل هذه المراكز الحضارية القديمة.

١٠. اذن لا بد من وجود سبب لكل هذا التغير في الديموغرافية السكانية ليس سببه الانسان وحده بل لا بد من وجود عوامل طبيعية قاهرة كانت فوق قدرة الانسان فلم يتمكن من السيطرة عليها وأدت الى تدمير وخراب كل هذه المدن والقرى، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان كل هذه المدن والقرى كانت عامرة في العصر الايوبي والمملوكي.

١١. وهنا اطرح سؤالا الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة، هل تعتقدون ان هناك دورة مناخية ؟ فقد ذكر البعض ان الاردن مثلا كانت في فترة ما اكثر رطوبة وأكثر أمطارا وغطاؤها النباتي كان كثيفا.

١٢. واخيرا أتوجه الى الباحثين بأن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار، وان يبحثوا جديا في اسباب هذه التغييرات في منطقتنا وهذا الاضمحلال السكاني الذي ادى الى خراب البلاد وذلك من خلال تحليل العظام التي تعود لهذه الفترة واعطائنا سببا علميا لهذا الوباء الذي لم يتمكن الانسان من السيطرة عليه وكذلك سببا علميا لهذه الجدوب والقحوط والمجاعات التي فتكت في المنطقة في

(٧٠) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص٧٥٠.

(٧١) المصدر نفسه.

العصر الوسيط و باعتقادي ان في هذا جواب قاطع لكل الادعاءات التي تعلل سبب هذا الاضمحلال بالحكم العربي الاسلامي في المنطقة، فنحن في العصور الوسطى بلغنا اوج التقدم الحضاري والعلمي والمصادر التاريخية تثبت ذلك.